احمد المحمدي صديق

الهاث ... في اتجاه معاكس

المحكمة قاعة فيها ناس . الناس يجلسون على مقاعد . المقاعد بغير ظهر . الظهر في مواجهة الوجه المقابل له . التقابل بين الوجه اوالقفا هو لب المشكلة !

لكن ، ها هم القضاة يتخذون اماكنهم . في الوسط اكبرهم . عيناه تبرقان بشيء ما . يتطلع الى حيث الموجودين ، مدعيا عدم المبالاة . بريق عينيه يفضح عناءه. يميل برأسه قليلا ، منصتا للرجل الجالس الى يمينه . يومىء في صمت . لا يزال يصغي . ملامحه النجهمة تبدأ في التحلل من توترها . تتفرج اكثر (هل هي مزحة ، تلك التي يصغي اليها ؟ ! .. ليتهم لا ينفردون بها . جميع الذين في القاعة لهم حق السماع . انا وشهود العيان ، ووكيل النيابة ، والحاجب ، وكل الذي ـ هو ـ محاصر هنا .. له نفس الحق ، ولديه نفس الرغبة ! .. لكن ، لماذا هم عجولون على هذه الصورة ؟! .. المزحة ، والبسمة ، ورجفة السعادة .. لم تنبض غير ثانية واحدة ، ثم ها هم يقلبون في الاوراق . ابصارهم تطوي السطور بطريقة مفزعة . الصحف تمر من بين ايديهم مرور البرق من على وجه السماء . يتوقفون عند صحيفة بعينها) ينادون :

ـ القضية ٥٦١٣ ، جنايات الاسكندرية .

الصمت .

لا حس ، ولا حركة . كينونة معطلة . لا احد يعرف هل هي قضيته ام قضية الاخرين . . رقم القضية ليس شيئا ، هي الرغم من انه ـ بذاته ـ هو كل شيء . فقط ـ الان ـ من سوف ينتمي بعد برهة الى نفس الرقم الذي قيل ؟! (لكنهم يغالطون . قضايا احدهم هي قضايا الاخر . قضيتي هي قضيتهم!.. نحن بشر ، ضائعون ـ تماما ـ احدنا مثل الاخر . ما الذي يفصل ـ اذن ـ بيني وبين اي منهم . من الذي يجرؤ على الكذب ، بهذه الطريقة الفاضحة ؟!) لكن القاضي يتكلم :

ـ هل المتهم موجود ؟!

(طبعا موجود ، هنا ، وفي كل مكان ! هل تعرف لماذا ؟! .. لانه اذا كانت ـ هناك ـ تهمة . واذا كان ـ لابد ـ ان تنتمي لواحد من البشر .. فحتما ـ هو موجود . سوف يكون ـ هو ـ بذاته ذلك الجالس في اقصى القاعة ، وهو ـ ايضا ـ الجالس في الناحية المقابلة ، وهو ـ الذي ـ في الوسط ، وبجوار الباب ، وفي الصفوف الامامية ، وفي الصفوف الخلفية ، وعند نهايات المقاعد ، وفي اواسطها ! .. سوف يكون هو ـ هو . وسوف يكون هو ـ كل الناس . لماذا ؟! .. لان الثواب والعقاب شيئان خارج نطاق الجرم الانساني ،ومن طبيعة مخالفة) .. لكن القاضي يتجاهل ـ مثل ـ هذه المسلمة الاساسية عن عمد ، ويبدأ التحديد والتخصيص ، على الرغم من ان المباذل الصغيرة والمباذل الكبيرة مشاع ، ومكفولة ، ولا تنتمي لواحد دون اخر .

يقول :

ـ القضية ٥٦١٣ جنايات الاسكندرية ، المتهم فيها عبد العال يوسف بركات . هل هو موجود ؟!

ـ موجود

قالها المحامي بطريقة باترة ،فاعطى البراءة لكل الناس الا واحدا منهم (لكن ، من الذي استدعى ـ ذلك ـ الرجل ؟! .. أمي ، ام ابي ؟! .. عمي ، ام خالي ؟! .. زوج اختي ، ام زوج عمتي ، ام زوج خالتي ؟! .. جدتي ، ام خادمي ، ام جارتي ؟! .. مع ذلك ، لا بأس .. فهم لن يحصلوا مني على شيء . لن افتح فمي ـ ولا حتى ـ لكي اعطس . فما دام كل منهم قصد الى ان يؤجر من ينوب عني ـ حين عرض المسألة ـ فليس عليهم من ضير في ان يعتمدوا على انفسهم ! .. لقد قمت بالفعل ، وبالفعل قتلت ، وكنت مقتنعا انني ـ بذلك ـ انوب عن كل الناس . لكنهم قصدوا الى اذلالي ، واحالوا الامر الى تهريج رخيص ، فانابوا ـ عني ـ من سوف يتكلم باسمي ، بدلا عن ان يتركوا لي حق المجادلة عنهم ، وعن جميع الناس ـ تماما كما لو كان الفعل الذي اديته كان منقوصا ، وغير واضح المبررات .. كالعادة حين يتولى انجازه محترف) لكن ـ من جديد ـ ها هو القاضي يؤدي دوره التعس :

ـ الادعاء .

ومن ركن ما ـ بعيد لكنه واضح ـ يقف رجل ، يرتدي ثيابا مزركشة ، تليق بطاووس ! .. يفرد ذراعه حتى اخرها . يجعل ابهامه متخشبا الى امام ، نحوي . يرسم على وجهه نمطيةجيدة، لكنها مفضوحة.يقلب عينيه في الحاضرين ، وشيئا فشيئا يبدأ في الاعتقاد بانه ـ هو ـ الذي ينوبعن الجميع (لكنني ـ من هذه اللحظة ـ اعاند النطق بالحروف والمقاطع . اريد ان اتكلم ، ليس عني .. بل عنه . فاولا ..ليس له الحق في ان يأخذ ـ عني ـ هذا الدور .وثانيا .. ليس جيدا منه ان يدخل الساحة وهو على هذه الهيئة . اود ان اقول له : لا تقطب ملامحك بهذه الصورة ، فالكون ـ جميعه ـ ليس

فيه مـا يبررها . ارغب في ان الفت نظره الى ان العالم لا يبالي بنا، وان هذه التقطيبة تفضح اهتمامنا به ، واندلاقنا عليه . وان علينـا ـ اذا كانت لدينا بقية من كرامة ـ ان نعامله بالمثـل : نبتسم ، وناكل ، ونشرب ، ونضاجع ! .. نسامر ، ونحب ، ونجري ، ونلعب ! .. نعمل ، ونستظل ، ونستدفيء ـ شرط ان يتم ـ ذلـك كلـه ـ بغير تقطيب) .. لكن وكيل النيابة كان قد اتخذ قـرارا بأن يعض ويدمي ، وها هو ـ الان ـ في الساحة يجرب :

ـ سادتي القضاة : المتهم الماثل امامكم ـ حال اللحظة ـ لا يمكن ابدا ان يندرج تحت جنس من اجناس البشر . هو بالحق ـ والحق اقـول ـ ليس اقل من شيء سافل ، يتميز بالدناءة والاسفـاف . هو تخريج غير طبيعي لذلك العصر الممتاز الذي نحياه ! .. تخيلـوا ـ سادتي ـ احلامنا المتواضعة ، حين يهبط عليها كائن ـ مثل الذي امامنا الان ـ فيسفحها في غمضة عين . دققوا النظر ، وقولوا لي باي شيء يمكن ان نبرر هدوءه المريب : هو ينظر الينا بعينين نصف مفتوحتين . رموشه تغطي كل ما هو رهيب . يداه ، المنسدلتان امامه برخاوة وسـلام .. هما نفس اليدين اللتين كانتا ـ في لحظـة سابقـة ـ صابتين ، ومتمرستان عـلى سحـق العظم !.. تستطيعون ـ سادتي ـ ان تحكموا عليه بكل ما تراءى لعقولكم التـي اختزنت الحكمة . تستطيعون ان .. (يا سيـد ، اني اكاد ان اضحك منك وعليك . ليس مهما ـ تلك ـ الاشياء التي تحاول ان تحشـو بها فمي الممتلىء . سوف اقبلها منك ، من اجـل ان اجلـب لـك حظا ، ومن اجل ان تشعر انك بذلت جهدا . لكني لا اقبل معك ان تمضغ الكلمات المهشمة ، بهذه اللذة . لن يرضيني ان تكون مخدوعا الى الحد الذي تعتقد معه ان الوجود ليس اكثر من بضع كلمات يمكن مضغها ببطء مبالغ فيه . هذا يخالف ما ابشر به ، ولذلك اسمح لي بهذا السؤال ـ الشخصي جدا : هل تتعامل مع الاودك بمثـل هذه الكلمات . هل تمضغها امامهم بهذه الكيفية . هل تضاجع زوجك بمثل هـذا التلكؤ وثقل الظل ؟! .. اذن ، فسوف تعيش طويلا ـ بشرط ان تغلق بابك بالضبة والمفتاح على ـ نفس ـ المرأة التـي تقتنيهـا ! .. مبروك عليك) .

لكن وكيل النيابة كان لا يزال ـ على حاله ـ يتكلم ، وكـان ـ هو ـ لا يسمع .

كان قد حشر نفسه في غور نفسه ، دون رغبة او قدرة عـلى الفكاك ، على الرغم من ان المحكمـة ظلت كما هي ـ منـذ البـدء ـ قاعة فيها ناس ، وناس يجلسون على مقاعد . ومقاعد بغير ظهر.وظهر يواجه الوجه المقابل له .

و .. (واعرف ـ وهم ايضا يعرفون ـ ان التقابل بين الوجه والقفا هو لب المشكلة)

بينه وبين نفسه ، يعرف ان حكايته مع هدى بدأت منذ ازمـان سحيقة !.. يوم ان تعرف اليها ، ما كان يتصور انه في لحظـة ما يمكن ان يقتلها ، او حتى يخدش مشاعرها بكلمة !.. كان الصباح مشرقا في ذلك اليوم البعيد . كان بحر الاسكندرية ـ العريض ـ ممتدا الى اخر مدى !.. لا شيء ، عدا ان النهار كان ينبض !.. الشاطيء ، عربات الحنطور ، نسوة الصيف . الشماسي ، الباعة، نعومة الريح ، تطاير الفساتين ، الزرقة اللامتناهية ، الحنان في قلبه ، الكـون .

وفي الكون ، ايضا ، التقى بها .

كانا يسيران في اتجاهين متعارضين . فجاة ، يجد كل منهمـا نفسه في مواجهة الاخر . الوجه ليس غريبا عليه . زميلتـه فـي الكلية بغير شك . وبغير شك ـ ايضا ، ها هي تبتسم ، من قبل ان تتكلـم :

ـ اهلا .. عبد العال

ـ وتعرفين اسمي ؟ !

ـ كل الناس تعرف من هو الاول على الدفعة .

ويبتسم ! .. يعرفونه ـ جميعا ـ على الرغم من ذلك الـركن البعيد الذي تحصن فيه ، منذ السنة الاولى ، وحتى الثالثة . لكن لا بأس .عليه الان ان يتكلم ، فليس معقولا ان يتـرك هذا الوجـه الصبوح ساكنا ينتظر .

ليس من الذوق الا ان يقول :

ـ البحر رائع

ـ فعـلا

ـ يوحي بالسكون والدعة .

ـ ليس في كل لحظة

ـ على الاقل في هذه اللحظة

ـ عـلى الاقل .. في هذه اللحظة .

يعجبه ذلك الشرخ في صوتها . يستهويه الحنان وبحة الاسـى ، وهي تتكلم (ثمة شيء ما في تركيب الحنجرة يدفعك الى الاحساس بأن شتاء الايام قادم ، وانك في حاجة الى الدفء ، من قبـل ان يلذع الصقيع قلبك) ومن ثم ، يسيران متجاورين . يشتري لهـا اللب والمرطبات . يرنو ـ معها ـ الى حيث البحـر ، والزرقـة ، والناس . يتحدثان في كل شيء . يكاد ان يتمسح بها (خذيني) يكـاد ان يتكيء عليها ـ محاولا النهوض ـ بعد تلك اللعبة الرهيبة ، التي يدور فيها الكائن من حول نفسه ، الى ان يقع عـلى الارض دائخا ، ومبهور الانفاس .

لكن ، هل في استطاعته ـ الان ـ ان يباشر نفس اللعبة ؟!

ربما كان هذا ممكنا ، وربما كان مستحيلا . فقط ، هو لا يستطيع ان يجرب ، بينما المحكمة لا تزال قاعة فيها ناس ، والناس يجلسـون على مقاء ...

● ●

تنداح الاشياء ـ بطريقة ما ـ الى حيث المجهول (كيف يتـم ذلك ؟!) يصعد جميع الناس الى حيث منصـة القضاء . تخلـو القاعة الا من عيون ـ كثيرة ـ تراقب . لكن المكان يظل ـ على الرغم من اي شيء ـ يتسع(كيف .. يتم .. ذلك ؟!) يشعر بمـا صار فيه من براح . يشعر بانه ضائع (هبوة) لكن .. لا . الان ، يستطيع ان يفرد ذراعيه على سعتها . يستطيع ان يدور من حول نفسه . ان يمارس ـ بالضبط ـ نفس لعبته القديمة ، فيدور ، ويدور .. وحيـن يدوخ ويصبح عالم المرئيات ـ من حوله ـ هو الذي يدور .. يقع على الارض . تستمر كبوته لبعض الوقت . يبدأ ـ بعد لحظات ـ يعي ذاته ، فيحاول النهوض . يشعر بأن العالم لا يزال يهتز . يتكيء على احـد كوعيه . لا يزال يلهث . يراقب الموجودات . يمتعه ما حدث (جعلها مهزوزة ، وغير مستقرة) تحكم في العالم ، لبضع لحظات : حرك جذوره ، وجعله ـ ايضا ـ يلهث ، ثم ابتدأ يراقب (كيف .. حـدث .. ذلك ؟!) لا ايقاع . لا طبلة او رق . فقط ، تراقص مهزوز ، يشي بأن العالم اما نشوان ، واما يترنح بعد ضربة صميمة مباشرة الى المعدة .

الان ، يريد لو يفر الى خارج القاعـة . ينفلت مـن رحـاب الزمن . يعود بالزمان والمكان الى حيث يعثر على رفاقـه القدامى : شاكر ، واسماعيل ، وحمدي ، ومحمد طه و .. وكل هؤلاء الـذين نادوه بالعبيط .

يريد ان يسمع ثغاءهم وزؤاطهم ، من حوله :

ـ عبد العال .. وقع

ـ استمر دقيقة .. لا غير

ـ ينظر اليّ .. وسوف يتعلم

ـ انت ؟!

ـ انا

انت ، وهو ، والجميع .. لا يمكن ان تستمروا الـى نصف الوقت الذي استغرقه انا .

دائما ، كانوا اشطر منه ! .. يبدأ اللعب ، عازما على الا ينتصر عليه احد . كان ، لا بد ان يبصم له بالعشرة ،بعد ان يدور ،ثم يدور، ثم لا يقع . لكنه ـ ابدا ـ لم يكن يفلح : كان يبدأ اللعب ، بطريقـة سريعة . يريد ان يتجاهل الجزئيات . عالم الموجودات الـذي ينبض في صمت (شرط هذه اللعبة المميتة ، ان تنغلق على ذاتك ، وتنسى كل ما عداك . ففي تلك الحالة ، لن يشغلك التتابع الدائم لكـل مـا ينبض بغير زيادة او نقصان) .. لكنه لم يكن يفلح . فبعد ثانيتين ـ فقط ـ يكتشف ان بصره لا يزال معلقا الى كل ما يحيط بـه : شجرة علي افندي قائمـة في مكانهـا . اسماعيـل يرقبـه بعينيـن لا تطرفان . شاكر يمص اصبعا من العسل المحروق . حمدي ينخـر طاقتي انفه . محمد طه يتحفز .

عيناه ملعونتان ، ولا تساعدانه على ان ينفصل ! .. ربما لـو اغمض عينيه تستمر اللعبة وقتا اطول . لكن .. لا . ها هي العيـون مغمضة ، وها هي الاشياء ـ كما كانت ـ تترى من قاع المخيلة:الشجرة، واصبع العسل المحروق ، والنظرة ، وبسمة التحفز ، واعـواد الحطب المتقصفة على ارضية الطريق الممد .

يقع ! .. يظل يحدق فيهم كالمذهول . عيناه تطلان على العالم بنـوع ما من الدهشة (ربما كانت الفزع ، وربما كانت الدهشة) فقط ، يذكر رقصهم المجنون من حوله (وكانوا يقولون : العجـل وقع في البير . وكانوا ـ حين يفرغون ـ يمدون اليك اكفهـم الملعونـة ، صائحين : قم يا عبيط . يا عبيط . يا عبيط . وكـانت الكلمة تصل اليك منغومة ونافذة ، وانت على كوعيك متكيء) .. كـان ذلك فيما مضى !.. الان ، لا احد منهم يقدر على ترديدها (سبقهم في الدراسة . رحل الى الاسكندرية . اغترب . عشقته احـدى الجميلات ، بغير ان يقول لها غير ان البحر اليوم يـوحي بالسكـون والدعة) و .. وفوق كل هذا ، فهو الوحيد ـ بينهم ـ الذي اكتشف فساد ـ نفس ـ المتوالية الكونية ، ذات الايقاع المعاد والمكرر ، والذي يبدأ دائما وينتهي بنفس المنطوق : المحكمة ، قـاعة فيهـا نـا ....

● ●

ـ في الايام الاخيرة ـ له ـ مع هدى ، تحدث اليها عن عالم الاشياء الـذي يمرقون من خلاله . قال لها انه ـ اي ذلك العالم ـ يتسم بالبلادة والاسفاف . وان الجزئيات الصغيرة ـ جميع الندف المبعثرة .. ملعونة ، وتثير في نفسه شعورا بالتحدي . وانه ـ لهذا السبب وحده ـ يرفض الكون من جذوره (ولم ابخل عليها بكل اسراري ، ولا بما اكتشفته من نواميس الكينونة ! .. قلت لها ان كونا واعـدا يجب ان يحل مكان ذلك الذي سبق استنزافه ، وانه حتم علينـا ان نضع ذلك في اعتبارنا حين نهم بأي فعل . قلت لها ان اقـداما كبيـرة مبططة تضغط الحصى ـ هناك ـ في مكان ما من الوادي. فتحت عينيها على التشقق في نهايات الكعوب ، وعلى بروز عظمتـي الوجه ، وتضخم الطحال في البطن فينتفخ ويعطي انطباعا بانه ممتليء وشبعان ، على الرغم من أن المصاريـن الدقيقة والغليظة ـ وحتـى المعـدة ـ لم تأخذ كفايتـها منذ الميلاد ، ولن تأخذ كفايتها حتى لحظة المـوت !.. حدثتك عن الشحوب ، والطفل يركب حمارا ذات صباح صقيعي مدمر ، ويظل يشن بانفه ، ويمسح السـائل الملعـون بطرف كمه الـذي صار متجلدا ، لكثرة ما تشرب من مخاط. اخبرتك عن التراب يفسد عيونهم صيفا وهم تحت وطأة الخماسيـن يقولون باغنية رتيبة تمتعهم ، وتمتص حياتهم الضامرة !.. كررت لك بان كونا واعـدا يجب ان يتشكل ـ منذ الان ـ بكل الشبع ، والغطاء ، والاقدام التي ليست متشققة لانها لم تعد حافية !.. لكنك ـ ابدا ـ لم تقبلي بما كنت اقول ، فانكمشت على نفسي ، ولم اخبرك بان الفكرة ـ بالرغم من شموخها ـ جاءتني عنو التشاطـر . ففي العربة التي حملتنا ـ معا ـ اثناء الرحلة من الاسكندرية الـى رشيـد ، تابعت بعيني جميع مكونات العالم اللامبالي ، وهي ترى من خلال النافذة التي تجلسين الى جوارها !.. كان وجهك يعترض مسار الاشياء . وكنت تبتسميـن ، وتتكلمين ، وتصمتين . فجأة ، تذكرتهم . كانوا مقوسي الظهور ، يعملون من الصبـاح الـى المساء ، وكانت طرقعات سوط مجهول تملا المسافة السمعية بيني وبينهم ، تماما كما لو كان هناك كائن خرافي يضرب ويسوط كي لا يتوقفوا عن العمل! .. شعرت باننا ـ هم وانا ـ لسنا اكثر من اطفـال ، بالرغم مـن شاربي الكت ، وبالرغم من تغلغلهم حتى اخر اعماقي . تصورتـك مثلي ومثلهم . ظننت انك تعانين من نفس الشيء . تيقنت من اننـا ـ جميعا ـ اطفال ، تستهويهم لعبة الوجود . هم هناك ، ونحن هنا .. مدفوقين الى مقاعد شائهة ، في عربة ذات بطن كبير ..ساعتها، احسست باننا عيـال على الكـون ، وانه سوف ينبض ـ دائما ـ بالحياة ، حتى ولو كنا غير موجودين !.. كان العـالم في كفه ، وكينونتي ـ باعتباري ممثلا لوجهة نظرهم ـ في الكفة الاخرى . كان يتحداني ان اثبت له ان وجودي ـ وبالمثل وجودهم ـ لازم لوجـوده لزوم الضرورة !.. كانت جميع مكاناته تزعق بذلك . كانت تنبضـ (هل تدركين معنى ان تنبض الاشياء من تلقاء نفسها ، وبغيـر تدخل مني ؟! ((اواه ، من النبض ، بغير صوت ، وبطريقة خفيـة ، هشـة)) ..!) لكن ، من الذي يبالي بمثل هـذا النبض المدغم ، بينما المحكمة قاعة فيها ناس ، والناس ...

● ●

يوم اخر ـ واخيرا ـ لهما معا .

كانا قد تواعدا على اللقاء ـ هناك ـ في النزهة . دخـلا الى المكـان من طريقين مختلفين . التقيا عند البركة الصناعية ، محدودة المساحـة . جلسا على مقعدين متجاورين . تطلعا الى حيث العالم : كان الاطفال يلقون الى البط ـ الذي يعوم في البركة ـ باوراق الخس، وفتات الخبز الابيض ، ومصاص القصب ، وقشر التفاح او البرتقال. وهناك ـ على ((الحلبة)) ـ كانت فرقة اجنبية تهدر بفنوة ليس لها معنى . اما على امتداد البصر ، فكانت الاشجار تلقي بظلالها فـوق عشب الحديقة ، بينما الاطفال ، والنسوة والرجال ـ يرتـدون ملابس زاهية ، خيطت بعناية ؟!.. (كانوا مخدوعين بالوجود . يحسبون انه يفتح ذراعيه لهم ويحتويهـم . كانـوا لا يفهمـون أس المتوالية ، ويجهلون معنى النبض اللامبالي ، ولا تقـوس الظهور ، وطرقعات السوط ، والانف السائب لطفل يركب حمارا في مكـان ما من هذا الكون الذي ـ بالفعل ـ تم استنزافـه ! .. فتحوا ادراج ملابسهم ، ثم راحوا ينتقون منها تلك الاردية التي ـ يمكـن ـ ان تتناسب مع ما يعتقدون انه احد ايام الربيع المشرقة ، والمسالة) لكن لا . ها هي اصوات مبهمة توشوش بان اللحظة هي فرصته ليعلن لجميع من جاء الى الحديقة ان الوجود ليس مسالما ، وانه لا يبالي بهم ، وان عليهم الا يتزينوا ، او يتعطروا ، اذا ارادوا ان يتعاملوا معه بالمثل . لكن كيف ؟! (كيـف اقول لهم ان الوجـود سـوف يظل ينبض ، وينبض ـ حتى بغير ان يتدخلوا فيه ؟!.. حتى وهـم غير موجودين ؟!.. لكـن ، هل مثل هذه المسلمة الاساسية تنطبق عليهم ـ هم ـ ايضا ؟!.. ربما نعم ، وربما لا . مـع ذلك ، يجب ان يقول . لابد ان يتكلم . لابد من دليل . حتم عليه ان يعثـر عـلى برهان ، واثبات ، وحجة)

ووجد ـ نفس ـ الشيء الذي كان يبحث عنه .

كانت زجاجتا ((الكوكاكولا)) بينه وبيـن هدى .. على المنضدة . كان النادل قد جاء بهما لتوه . وعلى السطح الخارجي بدأ بخـار الماء يتكاثف على الزجاج البارد . وشيئا فشيئا اخذت طبقة البخار

ثقل . احس بها تضغط على انفاسه ، ومع ذلك كان يريد لهـا ان تزداد وتزداد و .. (وظللت اراقب الامر ، وهدى الـى جواري!.. سألتني : فيم انت شارد ؟!.. حاولت أن ابتسم . خفت ان احدثها عن نبض الوجود فتسخر مني ، كما في المرة الاولى ونحن في العربة. تطلعت الى عينيها . وجدتهما تبرقان بطريقة مشرقة . اذن ، فخدعة الوجـود تجوز عليها ، مثلما جازت على الاخرين !.. كيف لم ادرك ـ من قبل ـ انها تتعطر ، وتتدلل ، وتسوي شعرها ؟!.. مع ذلك .. لا بأس . ما فات قد فات ، وعليهـا ـ الان ـ الا تمسـك بزجاجـة الكوكاكولا . عليها ان تعطي للبخار المتكاثف فرصته للنماء ، فانا اريد ان ادلل للناس بمثل هذه الطبقة التي ـ قد تبدو هشة ـ عـلى ان الوجـود سوف يظل ينبض من تلقاء ذاته ، وبغير تدخل منهم . أريد ان اريهم ان البخار ينمو ويتراكم ، بينما نحـن ـ فقط ـ نراقب !.. لكن هدى كانت تعانـد .. مدت يدها .لامست باطراف اصابعها جسم الزجاجة . كادت تدمر نفس الشيء الذي ألهث مـن خلفـه .

ـ لا تلمسيهـا ..

ـ ماذا ؟!

ـ لا تلمسيها

ـ هل تمزح ؟!

ـ بل انا جاد

ـ ولكنك طلبتها لي

ـ لا تلمسيها

جلجلت ضحكتها في الفضاء ، ثم طوحت برأسها الى الخلف ، بينما قبضت اصابعها على جسم الزجاجة ، وبدأت ترفعه الى اعلى .

ما الذي حـدث بعد ذلك ؟! .. ليس هذا هـو السؤال المضبوط ، بدليل أنني قلت جميع الذي حدث قبل ذلك . فقط، كـان عنقها مباحا لي ، وكان مفرودا وناصع البياض . ولمدة برهة، رأيته يضوي تحت الشمس بطريقة باهرة ، نابضا بالحياة ، والدفء، والمكابرة .. بغير ان أكون لازما لوجوده لزوم الضرورة !.. ولـم اتوان . فرصتي ـ الان ـ افضل من جميع تلك الفرص التـي حاولت ـ في الزمن الغابر ـ اقتناصها . مددت يدي .اصابعي العشرة متباعـدة ، وتعرف طريقها تماما !.. صح انها كانت منشنجة . صح ـ ايضا ـ انها كانت منجذبة نحو العنق الذي يضوي . قبضت عليه . تقوست اصابعي . تذكرت الظهور المقوسـة ، وطرقعات السـوط في يد الكائن المجهول . تقوست اصابعي اكثر (اني اضغط) طقطقت عظام الرقبة . طقطقت اكثر (الطفل يشن بانفه ، ويمسح السائـل في طرف كمه . البطون المنتفخة بكتلة الطحال المتضخم تنفتق . عينا شاكر تنزان بالصديد ، وامه تضع الكحل . محمد طـه يمخط شيئا احمر . حمدي يعود بين يدي امه بعـد ان امات لها كتكوتا عمره ثلاثة ايام . اسماعيل يتناول علبة سجائري ـ في مآتم امه ـ ويشكرني بعينيه في صمت بعد ان انقذته من الورطة) انسحق العنق تماما . (كان ـ يا للغرابة ـ هشا ، مثل طبقة البخار التي لا تزال تتكـون عـلى سطح الزجاجة ، التي سقطت من يدها فوق عشب الحديقة)

لكن ، من الذي يفكر ـ الان ـ في العشب ، والظلال ، والملابس الربيعية التي انحسرت من فوق كيان هدى الرائع ؟! .. من الـذي يفكر في الصباح ، والضوء ، وزهور الشمس ، بينما الجميع يدركون انهم في المحكمة ، وانهم يجلسون على مقاعد ، وان المقاعد بغيـر ظهر ، وان الظهر في مواجهة الوجه المقابل له . وان التقابل بيـن الوجه والقفا هو لب المشكلة ؟!

مـن ؟!

القاهـرة

دار الاداب تقـدم

امرأتان في امرأة

رواية بقلم

الدكتورة نوال السعداوي

صدرت حديثا